الصبي القاتل (١٠)

وقف رئيس اللجنة الإقليمية (توم) عند باب المكتب المفتوح لمرشح مجلس الأمة الجديد (أبراهام لنكولن) ينتظر الدخول عليه . لقد كان أبراهام منكباً على رسالة يقرؤها بتمعن وتأمل عميق . فأخذ توم ينتظر ويتأمل من بعيد ذلك الوجه المقطب العاكف على تلك الرسالة يقرؤها ، وكأنه هامة من جبلٍ صخريٍ منيعٍ موحش .

طوى أبراهام الرسالة ودار في كرسيه قائلاً : آسف يا توم لأني تركتك تنتظر ، فقد كنت أحاول أن أهتدي إلى طريقة يستطيع الرجل بها أن يكون في مكانين في وقت واحد ، يبدو لي أني لن أستطيع إلقاء خطبتي هنا يوم الجمعة . قال توم : لا تستطيع إلقاء خطبتك !! إنك بلا شك تمزح . فهز أبراهام رأسه وقال : كلا .. أنا جاد فيما أقول . نهض أبراهام وجعل يتمشى في الغرفة بخطوات بطيئة ، ورئيس اللجنة الإقليمية توم يتبعه معترضاً: إنك تعلم أنَّ منافسنا على هذا الكرسي (المستر كارترايت) قد يهزمنا ، وليس من الحكمة إضاعة أية فرصة ، إنَّ موعد الانتخابات قريب جداً .

---

(١٠) المصدر : كتاب كيف تكسب الثروة والنجاح والقيادة لدايل كارنيجي .. بتصرف .

فوقف أبراهام وقد ارتسمت على فمه الكبير ابتسامة غريبة التمعت بها عيناه الحادقتان النافذتان وقال : لا أستطيع أن أفضي إليك بالسبب ، وإني أؤثر ألا تسألني عنه .. الخلاصة يا توم أني لا أستطيع أن ألقي الخطبة هنا يوم الجمعة . فصمت توم وانتهى الأمر بينهما عند هذا المشهد .

في صباح يوم الجمعة عند مطلع الشمس .. كان المرشح المديد القامة يخترق الشوارع الساكنة في المدينة الغربية ماشياً قبل أن يستيقظ نوّامها . فما إن وافت الساعة التاسعة حتى كان أبراهام قد دخل بلدة في الريف على مسافة ٣٢ كم من حيث بدأ . سأل أبراهام الناس عن مكان محكمة البلدة ، فأرشوده إليها ثم ذهب مسرعاً إلى مكانها . كان باب المحكمة مفتوحاً على مصراعيه ، وجلساتها منعقدة ، والقاعة غاصة بالناس . دخل المرشح لمجلس الأمة دون أن يفطن إليه أحد ، وقعد في آخر الصف .

أدار أبراهام عينيه بكل من حوله وكأنه قد أَلِف هذا المنظر من قبل . كانت قاعة المحكمة من الداخل ساذجة .. مقاعدها من خشب ، خشبها غير مدهون ، وجدرانها بيضاء مطفية لا لمعة فيها . كانت المحكمة تنظر في قضية سرقة ، وهي أول قضاياها في ذلك الصباح ، فأرهف أبراهام أذنيه لكل

ما يسمعه من حوله ، وبدأ وكأنه يدرس القاضي والمحامين وهيئة المحلفين .. بـل لم تفته كلمة واحـدة مما كان يعقب بها الجالسـون بقربه . انتهت قضية الصباح الأولى وانتقلت المحكمة إلى القضية الثانية .

نهض المدعي وقدم قضية (جون ويلسون) المتهم بالقتل العمد . فَسَرَت في القاعة حركة ، وظهر في مدخلها مأمور الضبط يقود صبياً في الخامسة عشرة من عمره في ثياب رثة من صنع البيت ، وبين كتفيه رأس وضاء أحمر الشـعر . كان الصبي شـاحب اللـون مذعوراً ، عيناه تنظـران إلى الأرض ، يجرُّخطواته جرًّا . تمهل القاضي على الصبي مشـفقاً .. ثم عالج أعصابه فشدَّها وسأله : ألك محام أيها الصبي ؟ فهز الصبي شعره الذهبي المنفوش قائـلاً : كلا ، لا أعرف أحداً ، ولا مال لي أدفعه لمحامي . قال القاضي : هل تحب أن تعين لك المحكمة محامياً ؟

وفي هـذه اللحظـة .. سُـمِعَ في سـكون القاعة صـوت حذاءٍ يحك البـلاط ! لقد نهض الرجل الجالس في الصـف الأخير وتقدم ووقف أمام القاضي وقال : إني يا صاحب السـعادة محام ، ويسـرني أن أكون محامي الدفـاع . فنظـر القاضي هنيهة إلى هـذا الرجل الفارع الطـول المتراخي

الأوصال وسـأله : ما اسـمك ؟ فأجاب في هدوء : أبراهام لنكولن . فألقى بعض الجلوس هنا وهناك نظرة أخرى على المحام الضخم ، فإذا هو المرشح لمجلـس الأمة .. وكان هـذا كل ما دار بخلدهم . فمـا كان أحد من فلاحي الحدود ، أو أهل الريف الذين يلبسـون ما يصنعون في دورهم ، أو النسـاء اللواتي يرتدين قبعات الشمس ، يحلم بأنَّه سيأتي يوم يكون لهذا المحامي مكان رفيع في التاريخ .. أبداً أبداً .

أجاب القاضي : إني أعرفك يا مستر لنكولن ، وإنه ليسرني أن أُعَينُك لتولي الدفـاع عن المتهـم . أخذ المحلفون أماكنهم ، فـأدار أبراهام عينيه العميقتين الفاحصتـين فيهـم واحد بعد واحد . أما جمهور النـاس في القاعة ، فأخذوا ينظـرون إلى أبراهام بصبر نافذ ، فلقد كان شـعورهم ضد الصبي المتهم .. لكنهم كانوا يودون أن يروا من الدفاع شيئاً من الكفاح عنه .

بدأ المدعي يعرض القضية باسـم الشـعب ، وقص بإيجاز قصة القتل فقال : كان الصبي السـجين يعمل في مزرعـة السـيد (أموس بيري) في الخريـف السـابق من عام ١٨٤٥ ، وكان في المزرعـة رجل إيرلندي اسـمه (شونسـي) ، يطيب له أن يتسـلى بمعابثة الصبـي ومضايقته ، فكرهه

الصبـــي . وفي الثامن والعشـــرين مـــن أكتوبر ، كان الصبي يقـــود عربة إلى الضيعة المجاورة ممتلئة بالبرســـيم ، فالتقى عند بوابة المخازن في الضيعة الأخرى بشونســـي ومعه صاحب المزرعة الســـيد أموس ورجلان آخران ، جاءوا ليتأكدوا من ســـلامة توصيل البرســـيم ويســـاعدوا الصبي في إنزال حمولته . طلـــب الصبـــي من أموس أن يفتـــح البوابة ، وهمَّ أمـــوس أن يفعل ذلك ، وإذا بشونســـي يتكلم ويقول : إنَّ الصبي كســـول ، فعليه أن يترجل ويفتح البوابـــة بيديه . نزع الإيرلندي الشـــوكة الكبيرة التـــي مع الصبي فوخزه بها وأمره أن ينزل في الحال ، فوثب الصبي مندفعاً واســـترد الشـــوكة ، ثم ألقى بنفســـه على الإيرلندي وطعنه ، فانغرزت أســـنان الشوكة الكبيرة في جمجمته ومات بعد ساعة .. هذه هي القضية يا سعادة القاضي ويا هيئة المحلفين الكرام .

كانـــت ساعـــة الغداء قد وافـــت ، فرُفعـــت الجلسة . عبر القاضي ومدعي المحكمة وأعضاء هيئة المحلفين وجمهور المحكمة الشارع إلى المطعم المقابل ، لكـــن المحامي طويل القامة قد اختفى ! لقد كان يمشـــي في طُرقة ظليلة قريبة من المحكمة مع امرأةٍ هزيلةٍ ذاويةٍ في ثياب بالية ، كانت قبل لحظات تجلـــس في ركن مظلم من قاعة المحكمة وتـــذرف الدمع في صمت . تلك أم

السجين .. قالتها امرأة من الجمهور بصوت منخفض حين أعيدت الجلسة . أقعد أبراهام محامي الدفاع أم الصبي المتهم برفق وعناية ، ثم تقدم إلى مكانه في صدر القاعة .

دعا مدعي المحكمة شهود العيان ، وألقى عليهم الأسئلة ، فشهدوا بتفاصيل الجريمة ، وبدا وكأنه لا شك عند كل من سمع شهادة الشهود أن الصبي مُدان لا محالة . كان الصبي في هذه اللحظات منقبضًا منطوياً على نفسه ، شاحب الوجه مرهقاً من عناء الشهر الذي قضاه في السجن ، قد استولى عليه اليأس من النجاة ، يقول لنفسه : أحقاً سأشنق وأنا في هذه السن الصغيرة لم أتجاوز الخامسة عشرة من عمري ؟!

تقدم النهار ، وصار صوت المدعي يعلو ويهبط وهو يسأل الشهود ويطالب هيئة المحلفين بعدم الشفقة على هذا المجرم القاتل . ومع كل هجوم الادعاء على الصبي ، ظلَّ المحامي الضخم ظل جالساً هادئاً لم يُبْدِ اعتراضاً واحداً على أقوال المدعي أو الشهود .. إنَّه لم يعترض على أقوال ضارة جداً بالمتهم . لقد ظل المحامي ساكناً يتفحص وجه القاضي

ووجــوه المحلفــين ، وكأنه يدرس شــخصية كل رجل منهــم . وأخيراً .. قال المدعــي للقاضي : لقد انتهيت من ســؤال الشــهود جميعــا ، وانتهيت من عرض القضية كاملة أمامكم ، فأرجو منك يا ســيادة القاضي ومن السادة المحلفــين إدانة هــذا الصبي القاتل ، واتخاذ العقاب الــرادع في حقه وعدم الشــفقة عليــه . لقد مضى الوقت ســريعاً ودخل المســاء .. فرفع القاضي الجلسة لتناول وجبة العشاء .

كان الرأي السائد عند كل من حضر الجلسة أن الصبي مقضيٌ عليه لا محالة ، وأنه ما من محامٍ ولو كان محترفاً يستطيع أن ينقذه بعد شهادات الشــهود . وكان الــرأي أيضاً أنّ محامي الصبي لا يمكــن أن يكون محامياً قديــراً ، وإلا لاســتطاع أن يصنع شــيئاً لموكله قبل أن يبلــغ الأمر كل هذا السوء . كان الشعور العام يؤيد الحكم على الصبي ، فإن ارتكاب جريمة قتل في ســن صغيرة كهذه ، يدل على فســاد في الشخصية ، تتطلب من المجتمع التخلص منها .

أعيدت الجلســة عند منتصف الساعة الثامنة ، ولم يكن في القاعة ثمّة

مقعدٌ واحدٌ خالياً . وفي هذه المرة وكما أمرها أبراهام ، جلست المرأة النحيفة الباكيــة في ثوبها الرخيص الرث عند المنصــة بالقرب من قفص الاتهام .. جلســت بالقــرب من ابنهــا . دخل القاضــي والمدعي والمحلفــون ، وأخذوا جميعــاً أماكنهم في القاعة . وفي هذه اللحظــات الحرجة .. نهض أبراهام لنكولن ومشــى على مهلٍ بين الصفوف الصامتة ، فوضع يده الكبيرة على كتف الســجين النحيلة ، فاضطرب الصبي وخــاف ، فأحنى أبراهام قامته المديدة وقال : لا تخف يا بني سأخرجك من هذا المأزق ، فحاول أن تتشجع من أجل أمك . قالها أبراهام بصوت خافت .. ولكن ما من امرءٍ في المحكمة إلا وسمع تلك المقالة .

نظر الفتى إلى أمه الرثيثة اليائسة ، فقابلت نظرته بابتسامة متكلفة ، فحاول أن يبادلها هو الآخر الابتسامة .. فرأى الجمهور الجهد الذي بذله كل منهما للآخر ، ورأى القاضي والمحلفون هذا المشــهد أيضاً . أخذت عينا أبراهام الحادتان ترقبان كل شيءٍ تحت حاجبيهما الكثين ، فلمح اختلاجة رحمة في أكثر من وجه واحد .

نـزع أبراهام سـترته وعلقها على كرسـيه ، ثم بدأ حديثـه وقال : أيها السادة المحلفـون ، سأعالج هذه القضية على نحـو غير مألوف في المحاكم ، فلن أدعو شـهوداً ، فإن هذا الفتى السـجين هناك هو حسبي شاهداً ولن أجـادل . وكل ما سـأفعله أني سـأقص عليكم قصة ، ثـم أدع القضية بين أيديكـم . أنـت يا (جيم بك) .. أنت يا (جاك أرمسـترونغ) .. وأشـارت الأصبع الضخمة إلى اثنين من المحلفين . أنتما تسـتطيعان أن تتذكرا .. نعم وأنت أيضاً يا (لوك جرين) ، ما كان منذ ١٥ عاماً مضت ، حين أقبل من إنديانا فتى طويل نحيف في ثياب رزية بالية ، كان مظهره من الغرابة بحيـث لا ينسـاه من يراه . لقـد كان هذا الفتى يلبس سـراويل من صنع البيت أسـفلها مدسـوس في الحذائين . أيها السـادة المحلفون إني أعتقد أن بعضكم يتذكرون هذا الشـاب الذي كان اسـمه أبراهام لنكولن . سـكت المتكلم المعروق الوجه ورفع كُمَّيه قليلاً .. فرأى المحلفون الرسغين المكسوين بالشـعر وعضلات الكف والذراع . نعم الآن تذكر بعض الحاضرين العملاق الشـاب الذي كان بطـلاً في القوة البدنيـة والذي عاش بينهم ، فجلسـوا مرهفي الآذان .

مضى الصوت الحاني يقول وقد رقت عينيه بتذكر مشهدٍ مشاعريٍ دافئٍ منذ سنين مضت : إنَّ خير شطر من حياة الإنسان هو الذي يشتمل على صداقاتٍ حميميةٍ وفيةٍ ، استطاعت أن تذكره بشوق وولع بتلك اللحظات الجميلة التي عاشوها معاً ، وتذكره بأماكن تلك الصداقات وأشخاصها . وفي هذه الأنحاء من ريفكم الجميل ، لي أصدقاء أوفياء فضلهم عليَّ كبير ، لن أنسى ذكراهم ولحظاتي السعيدة معهم ما حييت . لذا دعوني أسوق لكم نبأ أسرةٍ منكم قد أولتني عطفها وودها .

غادر الشاب أبراهام لنكولن بيته في الثانية والعشرين من عمره لينشد رزقه ، فلم يجد العمل في تلك الأيام الشاتية القارصة الشحيحة في فرصها ومالها . لكن في عصر يوم من أيام الخريف ، وبعد أن قطع أميالاً وأميالاً بحثاً عن عمل ، سمع ضربة فأس أمام كوخ حقيرٍ .. حقير حتى بالقياس إلى أكواخ الرَّحالة البسيطة . كان على النوافذ قماش بدلاً من الزجاج ، وفي الكوخ غرفة واحدة فوقها غرفة صغيرة . فتقدم أبراهام صوب الكوخ وكله أمل أن يجد مأوى له قبل نزول الثلج وهجوم فصل الشتاء القارص عليه . سكت أبراهام قليلاً .. وشاعت في وجهه ابتسامة لذكرى جميلة ، ثم تابع قائلاً : أيها السادة المحلفون .. ما فاز ملك قط بأجمل مما فاز به

أبراهـــام من الترحيب ، فقد قال له صاحـب ذلـك الكوخ في ذلـك اليوم : إنَّ كل ما يملك هو له . ادخل الشاب المتعب إلـى الكوخ ، فوجـد فيه طفلان صغيران يلعبان على الأرض وامـرأة صغيـرة الجســم تغني لطفلٍ بجانب الموقد لينـام . تقاسمت الأسرة عشـاءها المتواضع مع الشـاب الضيف ، ثم صعد ضيفها إلى الغرفة العليا لينام من عناء يوم شاق طويل .

في صبــاح اليوم التالي .. وبعد أن عاون الشــاب صاحب الكوخ في بعض الأعمال ، ســأله قائلاً : هل ثمَّ من عمــل له يزاوله ؟ فقال صاحب الكوخ : نعم ، يوجد عمل كاف إذا كان يستطيع أن يقطع الخشب . وكانت النتيجة أنه قام وأثبت قدرته على القيام بعمل رجل . عاش أبراهام خمســة أسابيع في هــذا الكــوخ ، فكان يحتطب مــع الأب ، ويســاعد الأم في أعمال البيت ، ويلاعب الابن الصغير كثيراً .. ذلك الطفل البسّــام الذهبي الشعر . سيادة القاضي ، أيها الســادة المحلفون .. أنا لا أعرف شــطراً من حياتي كنت فيه أسعد وأهدى بالاً من تلك الأيام التي قضيتها معهم .

تناول المحامي ســترته مــن خلف مقعده ، وكانــت كل عين في المحكمة عليــه وتتحــرك معه ، فــدسَّ يده في جيب ســترته وأخرج منها رســالة ،

ومضى يقول : لقد انتقلت الحال فيما بعد بهذا الشاب المدين بالفضل العظيم إلى تلك العائلة إلى ما هو أرغد وأيسر ، واستطاع بفضل الله وبحسن الحظ أن يتبوأ مكاناً مرموقاً في المجتمع . لقد حافظت قدر استطاعتي باستمرار اتصالي بهؤلاء الأصدقاء القدماء ، لكن في غمرة المشاغل الكثيرة ، لم أستطع أن أراسلهم ولم يأتني منهم خبر في السنوات الأخيرة .. حتى كان صباح الاثنين الماضي .

لقد جاءني هذا في سبرنفيلد (مقاطعة في ولاية فرجينيا) .. ورفع يده بالرسالة ، إنها رسالة من الأم التي رحبت بشاب مكدود في كوخها المتواضع ، وقد مات زوجها منذ سنوات ، ثم تبعه الولدان الكبيران بعد ذلك . أما الأم التي كانت تغني لطفلها عصر ذلك اليوم الغابر .. وهنا أدار أبراهام وجهه إلى المقاعد الأولى ، وأشار إلى المرأة الصغيرة المنقبضة على المقعد الأمامي وقال : فهذه هي ، وأما الطفل الذي تغني له .. فهو السجين الماثل أمامكم . فسُمعت شهقة في القاعة الحارة المزدحمة ، ثم ساد صمتٌ تركه محامي الدفاع يفعل فعله ويقوم عنه بما يريد . فقد كان السكون يقود

لـه العقول والقلوب بما يعجز عن فعلـه الكلام . كان الناس في القاعة من رجال ونسـاء يحركون أقدامهم أو يتنهدون ، فقد حرك الصمت حماستهم ومشاعرهم لسماع المزيد من كلام الدفاع .

وفي اللحظـة المناسـبة ، تنـاول المحامي الأطراف المنهكـة من أعصاب الجمهور كما يتناول السـائـق أعنة خيلـه الحائرة وارتفع صوته قائلاً : ما أكثـر ما تذكـرت ذلك الحنان الذي لا ينضب النابع من هؤلاء المسـاكين ! لقد دعـوت الله مراراً وتكراراً أن يتيح لـي الفرصة التي أرد بها لهم شـيئاً من معروفهـم وإحسانهم . فلمـا جاءتني الرسالـة يوم الاثنين الماضي من الأم تطلـب المعونة ، أيقنت أن الله اسـتجاب لي وقدَّم لي الفرصة التي أريد . ويتفق أحياناً أن تأتي اسـتجابة الدعاء مقترنة بطلب تضحية ، وهذا ما كان مـن أمري . إنَّ هـذه الليلـة من حياتي قد تكون ذروة سـنوات طموحي السياسـي ، فقد كان عليَّ أن ألقي خطبة يحتمل أن تفضي بي إلى النجاح ، لكني فوَّت احتمال النجاح فداءً لسـلامة هذا الفتى .. وأنا سـعيد بذلك الآن . وعليكـم أنتـم - وأدار عينيـه القويتين في المحلفـين - أن تهبوه هذه السلامة .

أيها السـادة المحلفون .. قلت لكم في البداية إني سـأعالج هذه القضية

على نحو غير مألوف ، وقلت ليس عندي حجة أطرحها أمامكم ، وقد قصصت لكم القصة . إنكم لتعلمون أنه في السن التي تحمل فيها يد الغلام الكتب المدرسية ، أو أدوات صيد السمك ، أو أدوات اللعب والتسالي ، حملت يد هذا الفتى آلات الرجال .. فكان فيها الوبال . أنتم تعلمون كيف أنَّ الغلام ظل يستفزه رجل كبير حتى نفد صبره ، فاستعمل الآلة التي كانت في متناول يده في الدفاع عن نفسه . إن كل ما أرجوه منكم يا سادة أن تعاملوا هذا الغلام الصغير كما تحبون أن يعامل غيركم صغاركم ، فهذه حياته بين أيديكم أيها السادة المحلفون وقد أنهيت كلامي وختمته . وبعد ذلك اتجه أبراهام إلى مقعده في الصفوف الأولى وقعد .

بعد مرافعة الدفاع .. أعطى القاضي إذنه للمحلفين بالخروج والتشاور في أمر الفتى القاتل ، والاتفاق على إجماع يرون فيه إما إدانة المتهم أو براءته . خرج المحلفون وعبروا الشارع إلى غرفة في فندق مواجه للمحكمة . مضت نصف ساعة ، ثم حدثت حركة ، وعاد كل الذين قد غادروا المحكمة إليها متزاحمين . شدت المرأة البائسة الضعيفة الجالسة في المقعد الأمامي كفيها النحيلتين معاً ، تنتظر برجاء وخوف حكم السادة المحلفين .

رجـع المحلفون إلى قاعـة المحكمة .. وهنـا قال كاتب الجلسـة بصوت عال مسـموع : أيها السـادة المحلفـون ، هل اتفقتـم علـى حكـم . فقـال رئيسـهم : نعم . فقال الكاتب : ما حكمكم ؟ مذنب أو غير مذنب ؟ ومضت هنيئة .. لعلها ثانيـة لم يتنفس فيها أحـد في هذه القاعة الغاصة ، حدَّقت فيهـا المرأة الصغيرة بعينيها الدامعتين ووجهها المرعوب في رئيس المحلفين ومعها كل عيون الحاضرين شاخصة تراقب ما تنطق به شفتاه . كان الفتى يائساً .. رأسه الذهبي مثنى على صدره كأنه في عالم آخر لا يصغي إلى ما يدور حوله .

وفـي تلـك اللحظات وفي هذا المشـهـد المهيـب ، قـال رئيـس المحلفيـن : غيـر مذنب . فكانت الفوضى .. فراح الرجال يصيحون ويلوحون بأيديهم ويطوحون بقبعاتهم في الهواء ، والنساء يبكين ، فصرخت واحدة أو اثنتان وقد استخف بهما الفرح بسلامة الصبي اليتيم . نظر أبراهام لنكولن فإذا الغـلام النحيف يتطوح ويـكاد ينكب على وجهه ، فأسـرع إليه وتلقاه بين ذراعيه الكبيرتين ، ورفعه فوق الحاجز ، ووضعه بين ذراعي المرأة التي راحت تهزه وتقبله .. وأقبلت القاعة كلها عليها مهنئة .

عزيزي القاريء .. ما من مرة وصلت بقراءتي إلى نهاية مشهد الدفاع عن الفتى إلا وفاضت دموعي رحمةً لأم الفتى المسكينة ، وفرحةً لنجاة صبيها الصغير . كان مشهداً عصيباً مهيباً تملؤه الرحمة والوفاء والتضحية والصداقة الحقيقية الرائعة . لقد كانت بحق قصةً رائعة حفلت بالمشاعر والقيم الصادقة . أعجبتني هذه القصة كثيراً ورغبت في أن يستشعرها قارئي الكريم فيفيض على من حوله رحمةً ومودةً وحناناً ، أو يستشعرها ظالمٌ فيعتذر ممن ظلم ، أو عاقٌ فَيَصِل من قطع ، أو هاجرٌ فيرحم من هجر ، أو مستكبرٌ فيتواضع لمن خفض ، أو غاصبٌ فيُرجع ما سلب ، أو حاقدٌ أو حاسدٌ فيترك ما وجد .

إن المتتبع لطموح أبراهام لنكولن وسعيه المستميت لكسب المناصب السياسية ، يعرف حجم التضحية الكبيرة التي أقدم عليها أبراهام حين ذهب للدفاع عن الفتى وترك خطبته في سبرنفيلد في فرجينيا ، التي كانت من الممكن أن تقوده إلى الفوز نائباً في مجلس النواب الأمريكي (الكونغرس) . إنَّ أبراهام قد ضحَّى من أجل سلامة الفتى بجهود مكثفة بُذلت لسنوات لدعم ترشحه لمجلس النواب .. تضحية كبيرة وفاءً لعهد قديم من الصداقة مع أسرة قد أحسنت إليه في شبابه . كانت تضحية نادرة

منــك يا أبراهام ووفاءً فريداً اســتحققت عليه منّا الذكر والشــكر والثناء والعرفان .

لكـن يـا أبراهـام بعد قليل .. لربما استحقرت تضحيتك العظيمة تلك !! فعندما يقارن شــخص الأفعال بعضها ببعض ، يمكنه أن يســتبين منها الرفيع والحقير ، والعظيم والتافه ، والمذهل والعادي . كما ســيدرك عقله أنَّ للأعمال مراتــب ودرجات يتفاوت بينها الحمد والمقام والفضل والكمال . دعنــي يــا أبراهام اطلعــك اليوم على مثــال كويتي تجــاوزت تضحياته تضحيتك العظيمة تلك ، وتجاوز عطاؤه وصبره وأفعاله الكثير من الأمثلة والرموز والأشخاص .

هل ســمعت يا أبراهام بطبيب نذر أكثر من ثلاثين سنة من عمره ووقته وجهــده وفراغه لخدمــة الفقراء والأيتام والجياع .. هل ســمعت يا أبراهام بالدكتور عبدالرحمن الســميط الأمين السابق لجمعية العون المباشر ؟ إنَّه الرجل الذي نذر نفسه منذ عام ١٩٨١ لخدمة أيتام إفريقيا وفقرائها .. تلك القارة السوداء المنسية التي تجاهلها الكثيرون . إنه ذلك الرجل الذي اختار

أن يعيش ما تبقى له من العمر بين قبائل الأنتيمور في جزيرة مدغشقر إغاثةً ومساعدةً ودعوةً وتعليماً .

في سبتمبر عام ٢٠٠٢ ذهبت إلى كينيا لأشاهد وأعاين بنفسي مستوى السياحة الشبابية فيها .. فليس الخبر كالمعاينة . ولعلها إن أعجبتني رتبت بعض الرحلات الشبابية إليها . رتبت جميع أمور سفري مع جمعية العون المباشر في الكويت ، ووصى الدكتور عبدالرحمن السميط حفظه الله العاملين في لجنته هناك في كينيا باستقبالي وتسهيل جميع أمور رحلتي .. وهو ما يفعله جزاه الله خيرا مع غيري ومع جميع الراغبين بزيارة هذه القارة السوداء المنسيَّة .

ما إن وصلت إلى مطار كينيا إلا والإخوة حفظهم الله في استقبالي ، وكان الشيخ علي كريسا حفظه الله أحد الإخوة الأفاضل الذين التقيت بهم بعد ذلك في مدينة ممباسا ، والذي رافقني ولازمني طوال مدة إقامتي فيها وفي مدينة مالندي رغم نشاطاته الدعوية الكثيرة في هذه المنطقة . وعرفت من الشيخ أنه أحد الذين يرافقون ويلازمون الدكتور عبدالرحمن السميط دائماً في رحلاته الدعوية في كينيا ، فقلت للشيخ علي : حدثني عن إحدى رحلاتك مع الدكتور عبدالرحمن السميط . فقال : سأحدثك

عن رحلة معه دامت خمسة أيام إلى منطقة (تراسا) التي تسمى بمنطقة البعوض لكثرة البعوض الذي يملؤها .

كان الدكتور عبدالرحمن يخرج بنا من الفجر حتى العاشرة مساءً ، وعندما نرجع للنوم إلى مقرنا بعد عناء اليوم ومشقة المسير ، نقول للدكتور : ألا ترتاح يا دكتور وتخلد للنوم . فيقول : أطلب إليكم فقط تشغيل مولِّد الكهرباء ، أريد إضاءة ، أريد أن أكتب قليلاً ، كلوا أنتم طعامكم ثم ناموا . يقول الشيخ علي كريسا : فنتعشى ثم ننام ، والبعوض يغطي المكان ويغطينا . وكلما استيقظت من نومي ، أرى الدكتور جالساً يكتب ويمسح البعوض الذي غطى جسمه ، ثم أغفو مرة أخرى ، ثم أصحو لأراه على الحال نفسها ، فلا نشعر إلا والدكتور يوقظنا لصلاة الفجر ، فلا أدري متى ينام هذا الرجل ؟

في أحد الأيام ذهبنا إلى أحد مراكز الأيتام في قرى تراسا ، فإذا بحمّامات الأيتام لا تعمل ، لا يدرون ماذا حصل لمجاريها ، فاضطر الأولاد للذهاب إلى الغابة لقضاء الحاجة ، وهذا فيه خطر عليهم . وعلى الفور نزع الدكتور ثوبه يريد معرفة سر العطل في هذه الحمامات . لقد كان على الدكتور سروالاً وقميصاً داخلياً لو أعطيته بالمجان ما لبسته ، لأنه كان

قديماً وممزقاً من كل مكان . نزل الدكتور في حفرة الأوساخ فأدخل يده كلها حتى آخر العضد في مجرى الأوساخ ، حيث تخرج الأوساخ منها من الحمام إلى الحفرة ، فإذا بالرائحة النتنة تنتشر في المكان ، فهرب جميع الإخوة الذين حضروا مع الدكتور بعيداً عن هذه الرائحة التي لا تطاق . أما أنا فقد استحييت من الدكتور أن يكون وحده في الحفرة ، فدفعت نفسي دفعاً للنزول معه إلى حفرة الهلاك . فاستمر الدكتور جاهداً في إخراج الأحجار العالقة والخرق والأوساخ ، وما هي إلا دقائق من العمل الجاد وإذا بتلك الحمامات تعمل من جديد . خرج الدكتور من الحفرة وقال للأيتام : هناك سنبني مطبخاً لكم .. أين السكين ؟ فأخذ السكين الكبيرة وذهب إلى الغابة يقطع الأغصان ويبني للأيتام مطبخاً .. فعل كل هذا في نهار واحد .

وفي أحد هذه الأيام الخمسة المباركة أيضاً ، قصدنا قرية أخرى نعرفها من قرى تراسا ، فإذا بجدول ماءٍ كبير وأوحال تعترض سيارتنا ، فلم نستطع عبورها وبدأت مياه الأوحال تتسرب إلى داخل السيارة . ترجل الدكتور من السيارة وأخذ قليلاً من الخبز معه ، وقال : من شاء فليتبعني إلى هناك . فنزلنا حياءً منه وسرنا خلفه ، فإذا بقرية فقيرة فيها مسلمين ومسيحيين لم نكن نعرفها ولم نكن نقصدها ، قد عرف الدكتور

حاجتهم إلى الماء ، فبنى لهم بئراً هناك وانصرف .. وهذه البئر تعمل إلى اليوم . يقول الشيخ علي : كان الدكتور يعطينا تعليمات واضحة مكتوبة على ورق ، وهذه التعليمات عبارة عن أسئلة نتوجه بها إلى أهل القرى نسألهم مجرد وصولنا إلى قراهم . ومنها : هل عندكم بئر ماء ؟ هل لديكم مسجد ؟ هل عندكم مدرسة ابتدائية أو ثانوية ؟ هل هناك مركزاً لتحفيظ القرآن ؟ هل .. ؟ هل .. ؟ .

يقول الشيخ علي كريسا : لقد زار بعض الإخوة من البحرين منطقة تراسا هذه لقضاء ليلة واحدة في مركز الأيتام هناك ، فإذا بهم يلاحظون الأيتام وقد اصطفوا استعدادا للصلاة وهم يضربون أيديهم وسواعدهم ورقابهم ، فاستغربوا من هذه الصلاة ، وقالوا : ما هذه البدع والأعمال الغريبة التي يعملها الأولاد في الصلاة يا شيخ علي ؟ فضحكت في نفسي وقلت لهم : أسرعوا وتوضئوا حتى نلحق بهم . فما إن اصطف الإخوة من البحرين مع الأولاد حتى أخذوا هم أيضا يشاركون الأولاد الضرب والتلويح !! لقد عرفوا الآن سر هذه البدع .. إنه البعوض المفترس .

يقول الشيخ علي : لقد كنت كسولاً في الدعوة ، ولكني لما رأيت هذا

العربي الأبيض الآتي من الكويت يعمل بهذا الشكل من الحماسة والحُرْقة ، استحييت من نفسي وأنا ابن هذه القارة السوداء كيف لا أعمل !

يقول الدكتور عبدالرحمن السميط في مجلة الكوثر (عدد ١٢) :

تقع قرية لوغلوغو في شمال نيروبي عاصمة كينيا ، وتبعد عنها مسافة ١٨ ساعة تقطع بالسيارة . يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠ نسمة ، وهي المنطقة نفسها التي يقيم فيها أبناء قبائل الريندبلي الذين ينحدرون من أصول إسلامية صومالية ، لكنهم وثنيون في الغالب ومنهم نسبة من المسيحيين وعدد قليل جداً من المسلمين . المنطقة صحراوية قاحلة لا تكاد تعثر فيها على شجرة إلا بصعوبة بالغة ، ووجود الماء فيها نادر ، وطبعاً لا شيء فيها اسمه كهرباء . ورغم ذلك فوجئت بوجود قسيس بروتستانتي أمريكي يعيش فيها مع زوجته منذ ١٢ سنة .

كان هذا همُّه وما يعجبه في الناس ، التضحية والمثابرة والعمل الجاد ، لذا تراه دائما ما يخصص في مجلته الغراء (الكوثر) قصة نجاح لغربي

أو شرقي استطاع بعمله الجاد ومحاولاته المستمرة أن يحقق النجاح الذي ينشده .

هذا نزر يسير من سيرة الدكتور عبدالرحمن السميط الذي يخبأُ له ميزانه يوم القيامة بإذن الله تعالى الكثير من هذه الأعمال العظام التي لم نعرفها بعد .. هذا هو عبدالرحمن السميط الذي أسلم على يديه وعلى أيدي العاملين في جمعيته أكثر من ١١ مليون شخص من قارة إفريقيا .. هذا هو عبدالرحمن السميط الذي كثيراً ما يجده موظفوه وقد سبقهم في الصباح الباكر إلى حمامات جمعيته ينظفها ويغسلها لهم .

obeikandl.com

لا تخشى إلا الله

• دخل الإمام الأوزاعي على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور فقال : يا أمير المؤمنين قد جاء في تأويل هذه الآية عن جدك عبدالله بن عباس (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أنه قال : الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك . فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن . يا أمير المؤمنين : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعةً لخشيت أن أُسأل عنها . فكيف بمن حُرم عدلك وهو على بساطك ؟

• لما وليَّ عمر بن أبي هبيرة العراق وخراسان في أيام يزيد بن عبدالملك ، استدعى الحسن البصري وابن سيرين والشعبي ، فقال لهم : إنَّ يزيد أخذ علينا ميثاقاً بطاعته ، ووليَنا ما ترون ، فيكتب إليَّ بالأمر من أمره ، فأفعل ما يأمرني ولا أعصيه ، فما ترون ؟ فقال الشعبي وابن سيرين له قولاً فيه لين . فقال ابن أبي هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ قال الحسن : يا ابن أبي هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله ، إنَّ الله يمنعك من يزيد وإنَّ يزيد لا يمنعك من الله . وأوشك الله أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك . يا ابن أبي هبيرة إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركبنَّ دين الله وعباده بسلطان الله .. ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

• يقول الشاعر

إذا خان الأمير وكاتباهُ ... وقاضي الأرض داهن بالقضاء
فويل ثم ويل ثم ويل ... لقاضي الأرضِ من قاضي السماء

• ويقول الإمام علي رضي الله عنه

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم مرتعه يفضي إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

• يقول شيخ الحرم المكي الفضيل بن عياض : يهابك الخلق على قدر هيبتك لله .
• ويقول القاضي شريك النخعي : أعِزَّ أمرَ الله يُعِزُّك .
• ويقول عالم المدينة وقاضيها سلمة بن دينار (أبو حازم) : أحمق الناس من باع آخرته بدنيا غيره .